نحو قراءة جديدة في الإعجاز القرآنيّ
"سورة الكهف" أنموذجًا

فريد إمام عثمان*

يمكن أن نُلحظ وفرة الدراسات التي تناولت أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، وتنوّعت، وغدت مواضيع متعدّدة للبحوث والأطاريح الجامعيّة، بشكل لم يحظَ به أيّ كتاب آخر. ويمكن التساؤل: لماذا اختيرت سورة الكهف؟ وما الذي يميّزها عن غيرها من السور؟

لقد حظيت هذه السورة بتركيب مدهش، وبمعجم لغويّ غنيّ، وهذا ما لا نجده في سورة أخرى، إلى جانب التصوير الفنّيّ الذي لن تجد له مثيل، في ما كتبه الأدباء على مرّ العصور. على هذا، تستحقّ هذه السورة أن تُفرد لها دراسة مستقلّة. والتركيب اللغويّ، والصور الفنّيّة الخصبة، جعلها متميّزة من غيرها، والرؤية إلى النفس البشريّة. كيف لا وقد تميّزت السورة بالتوجيه الدينيّ الشامل، في إطار من العرض الفنّيّ الشيّق. والمنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الأسلوبي التحليلي الذي يرمي إلى تخليص النصّ من الأحكام المعياريّة والذوقيّة، والابتعاد من الانطباع غير المعلّل. وفي هذا الأسلوب "قوّة ضاغطة تتسلّط على حساسيّة القارئ، بوساطة إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام، وحمل القارئ على الانتباه إليها" [1]. والأسلوب يستمدّ ينابيعه من مقوّمات الظاهرة اللّغوية في خصائصها البارزة، فيحصر مدلول الأسلوب في تفجّر الطاقات التعبيريّة الكامنة في اللغة، بخروجها من عالمها الافتراضيّ إلى حيّز الموجود اللغويّ.

يتجسّد الأسلوب من خلال المعطيات اللغويّة للنصّ الأدبيّ، من خلال البحث عن القيمة التأثيريّة لعناصر اللغة المنظّمة، والفاعليّة المتبادلة في ما بعد؛ كي تُشكّل النظام الذي تقوم عليه الوسائل اللغويّة المعبّرة.

عند قيامنا بعمليّة التحليل الأسلوبيّ، كون "الأسلوبيّة روح منهجيّة، علميّة، أكثر منها تنظيرات"[2]، نبدأ بتحليل ألسنيّ للنصّ فننظر إلى النصّ بوصفه رسالة، أو خطابًا، بما فيه من لغة قائمة بذاتها، ثمّ نعتمد على اللغة في جانبها الإبداعيّ، من خلال العلامات اللغويّة.

إنّ المنهج الأسلوبيّ يحاول الإفادة من العناصر الموروثة كلّها، وهي في الأصل، قيم تعبيريّة، تصلح أن تكون أساسًا (لأسلبة) البلاغة. أي يرتكز على فلسفة النحو ذاتها، والنظر إليها، بوصفها ممثّلة لطبيعة التركيب في الصياغة، على مستوى الجمال الفنّي، أو على مستوى الإبداع؛ ثمّ تحويل الحقائق اللغويّة إلى قيم جماليّة في عمليّة الأداء الابداعيّ. ويأتي دور المنهج الأسلوبيّ في محاولة الكشف عن القيم التي

تختزنها سورة الكهف. ومن المفيد أن تتضمّن هذه الدراسة ثلاثة محاور:

يتناول المحور الأوّل النظام اللغويّ في سورة الكهف.

ويعالج المحور الثاني المستويين الصرفي والنحويّ، في محاولة لوضع اليد على الحيّد الذي تحقّق.

أمّا المحور الثالث فيعالج المجاز والرمز، للكشف عن الصور الفنّيّة التي حفلت بها هذه السورة. وتنتهي الدراسة بكلمة أخيرة، تُظهر ما أمكن التوصّل إليه من نتائج.

- **المحور الأوّل: النظام اللغويّ في سورة الكهف**

تنطوي سورة الكهف على بنية عميقة الغور، وهي ذات أسلوب أخّاذ في التعبير، يتمثّل في المعجم، والتراكيب، والإعراب، والحالات النحويّة، إلى جانب التصوير الفنّي. ودراسة المفردات "تكون بمثابة دراسة انعكاس للواقع كلّه، في نفوس الأفراد المختلفين الذين يستعملون تلك المفردات، ويكوّنون منها لغتهم"(3). ومن المفيد أن نبدأ بدراسة النظام اللغويّ في هذه السورة، بـ:

1. الحقول الدلاليّة ودلالاتها.

تتضمّن هذه السورة القرآنيّة مجموعة من المفردات التي ائتلفت ضمن موضوع محدّد، إلى جانب مراعاة السياق، وتُعدّ من مرتكزات السورة، وربّما بمضمونها. "وكلّما تردّدت بعض الكلمات، بنفسها أو

سُورَةُ الكَهْفِ

بمرادفها، أو بتركيب يؤدّي معناها كوّنت حقلًا أو حقولًا دلاليّة"(4).

تُظهر العودة إلى سورة الكهف، وجود غير حقل دلاليّ، تتضافر جميعها وتتكامل؛ لخلق دلالات محدّدة، تنفتح على دخائل النفس البشريّة، وتضع منهاجًا بيّنًا لسلوكها القويم. من هذه الحقول:

أ. حقل الإيمان والهداية

يتضمّن هذا الحقل مجموعة من المفردات التي تتمحور حول إيمان الإنسان بخالقه، والعمل على الاهتداء به وطاعته، وتجنّب نواهيه. من هذه المفردات: (المؤمنين، يؤمنوا، آياتنا، آمنوا، هدًى، ربطنا، يعبدون، يهدِ، المهتد، يهديَن، تُفلحوا، رشدا، آمنوا، عملوا الصالحات، المبشّرين، المغفرة، آتيناه، رشد، صابر، الهدى، آمن، آمنوا، ربّي).

ب. حقل التحذير والوعيد

يجد القارىء مجموعة من المفردات التي تتأطّر حول موضوع واحد، هو حقل التحذير والوعيد، ففيه يُحذّر الله تعالى الكافرين والمشركين من مغبّة كفرهم، من خلال الكشف عمّا جرى للأوّلين من قبله، أحيانًا. ويضمّ هذا الحقل مفردات مثل: (ليُنذر، يُنذر، لم يؤمنوا، يُضلل، ملتحَدا، أغفل، اتّبع هواه، أكفرتَ، حشرناهم، ففسق، عدوّ، موبقا، العذاب، منذرين، كفروا، أُنذروا، أهلك، تُعذّب، نعذّبه، فيعذّبه، عذابًا، دكّاء، نُفخ، عرضنا، الأخسرين، ضلّ، حبِطتْ، جزاؤهم، جهنّم، أعتدنا، نار، سرادقها، يستغيث، المهل، ظالم، تبيد، زلقا، غور، أُحيطَ، خاوية، مشفقين، المضلّين، مواقعوها، أُنذروا، أكنّة، أهلكناها، مهلكهم،

ج. حقل الثواب والأجر

تتنوّع حالات الأجر الذي يلقاه المؤمن في السورة، فمن مفردات هذا الحقل نجد: (يبشّر، أجرًا، ماكثين، زدناهم هدى، رحمته، ينشر، رزق، زينة، جنّات، تجري الأنهار ،يُحلّون، أساور، ذهب، ثيابًا خضرًا، استبرق، متّكئين، الأرائك، جنّتين، أعناب، نخل، زرع، نهر، ثمر، جنّته، جنّتكَ، يؤتيَنِ، حسبانًا، ثواب، ماء).

د. حقل الكفر والشرك

وتتعدّد الإشارات إلى الكفر والمشركين الذين يتنكّرون لدعوة الرسول محمد (ص)، ومن المفردات المتعلّقة بهذا الحقل نجد: (كذبا، شططا، افترى، يشرك، اتّبع هواه، يكفر، أكفرْتَ، يقلّب كفّيه، أُشرك، كفروا).

هـ. حقل الإحسان

يتعلّق بهذا الحقل مجموعة من المفردات التي تتمحور حول فعل الخير والإحسان، ويضمّ مفردات مثل: (يعملون الصالحات، أحسن عملًا، عملوا الصالحات، أحسن عملًا، الباقيات الصالحات، عمل صالحًا، يحسنون صنعًا، عملوا الصالحات، عمل صالحًا).

إنّ نظرة متمهّل إلى هذه الحقول، تُظهر تفوّقًا واضحًا في عدد المفردات المتعلّقة بالتحذير والوعيد، ولعلّ هذا يعود إلى تثبيت الدعوة إلى عبادة الله الواحد، كما يبعث الخشية والرهبة في قلوب المشكّكين، ويؤكّد العمل تصديق الأنبياء والمرسلين، كذلك الفتية الذين أووا إلى الكهف، هربًا من

الظالمين الذين يريدون طمس عبادة الخالق.

ويُبيّن حقل الكفر والشرك موقف هذه الفئة من الناس، إذ يعمدون إلى الكذب، وما من سبيل أمامهم إلاّ الاعتراف بالواقع، والتسليم بمشيئة الله تعالى. "أمّا تصحيح منهج الفكر والنظر؛ فيتجلّى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان. وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم، ولا يتعدّاه، وما لا علم له به فليدعْ أمره إلى الله"[5].

إذا ما كانت المفردات المتعلّقة بحقل الإحسان قليلة العدد، بالقياس إلى الحقول الأخرى، فإنّها تُظهر أهمّيّة العمل الصالح الذي يقوم به المؤمن، وفي الوقت ذاته، تُبيّن مدى تأثير هذا العمل في سلوكيّة الإنسان، مع ما يعود عليه هذا العمل من نتائج مرجوّة، في الدنيا والآخرة.

2. التكرار ودلالاته

يرد التكرار لأغراض متعدّدة، في النصّ القرآنيّ، والمفردة التي يُعاد استخدامها، ترمي في كلّ مرّة بدلالات جديدة، ما كانت لتمتلكها لولا هذا التكرار، فقد يُستخدم التكرار "إمّا للتعبير عن همّ وحاجة متعلّقين بالكلمة المكرّرة، وإمّا للتلذّذ، أو التعظيم، أو ما شاكل ذلك"[6].

يجد المتمعّن في سورة الكهف، تكرارًا ملحوظًا للحرف الواحد، أو المفردة الواحدة، وللجملة أحيانًا. قد يحدث أن يتكرّر حرف بعينه، أو أحرف معيّنة، بنسب متفاوتة. ويترك هذا الأمر أثرًا فعّالًا في المتلقّي، ولعلّ من غاياته إحداث تنوّع صوتيّ؛ لإحداث إيقاع خاصّ يؤكّده التكرار. وقد يكون لشدّ الانتباه، إلى كلمة أو أكثر، من طريق تآلف الأصوات بينها، "وإمّا أن يكون لتأكيد أمر اقتضاه القصد، فتساوقت الأحرف المكرّرة في نطقها له، مع الدلالة في التعبير عنه"[7]. وظاهرة التكرار منتشرة بشكل لافت للنظر في سورة الكهف.

أ. تكرار الحرف الواحد

ما من شكّ في أنّ سورة قرآنيّة طويلة، تتضمّن تكرارَ أحرفٍ معيّنة، ويُظهر الإحصاء تكرارًا ملحوظًا لبعض الأحرف: المجهورة منها والمهموسة. تكرّر حرف اللام المجهور، ثلاث مئة وسبعة وثمانين مرّة، ويُعرّف الحرف المجهور بأنّه "حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفَس أن يجري معه؛ حتّى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت"[8]، إذ ورد في الآية الأولى من السورة عشر مرّات، وحرف الجيم اثنتين وثمانين مرّة، والباء مئة وثمانية وثلاثين مرّة، وحرف العين المجهور أيضًا مئة وثمانين مرّة... وغيرها. وتكرار الحرف "إمّا أن يكون لإدخال تنوّع صوتيّ يُخرج القول عن نمطيّة الوزن المألوف؛ ليُحدث فيه إيقاعًا يؤكّده، وإمّا أن يكون لشدّ الانتباه إلى كلمة أو كلمات بعينها، عن طريق تآلف الأصوات بينها"[9].

حظيت الأحرف التي تتّصف بالقوّة بنصيب من هذ التكرار، إذ ورد حرف الكاف مئة وثلاثة وستّين مرّة، والقاف مئة وأربعين مرّة، في حين أنّ حرف الصاد– وهو من أحرف الصفير– ورد خمس

وأربعين مرّة. لم يأتِ هذا التكرار عشوائيًّا، إنّما ورد مقصودًا، وقد تكون الغاية منه توظيف الفاعليّة الصوتيّة لهذه الأحرف، وورودها بهذه الطريقة المدهشة في التناسق القائم بينها، يُعدّ وجهًا من أوجه الإعجاز القرآنيّ الذي ليس له مثيل. ويتأكّد من هذا "أنّ فاعليّة التركيب الصوتيّ شيء وراء المعنى الذي يؤدّيه إلينا ارتباطنا السابق بمكوّناته الصوتيّة"[10].

ب. تكرار المفردة

لا يقتصر الأمر في التكرار على أحرف معيّنة في سورة الكهف، إنّما يتجاوز ذلك؛ ليعثر الدارس على تكرار مفردات بعينها، لغاية مقصودة، ومن المفردات المكرّرة:

الله: تُعدّ هذه المفردة محوريّة في السورة، فقد تكرّرت، مع كلمة (ربّ) التي تعطي معناها ذاته، اثنتين وثلاثين مرّة. والتركيز على هذه المفردة يشير إلى ضرورة التوحيد، وإلى جعل الإيمان بالله الخالق منطلقًا وحيدًا لاستقرار الإنسان واطمئنانه.

العمل: يتجلّى التركيز واضحًا على هذه المفردة، من خلال تكرارها، مع ما لحق بها من تصرّف، فقد وردت عشر مرّات. وأغلب ورودها جاء مترافقًا مع العمل الصالح الذي يتميّز به الإنسان المؤمن. وهي، كسابقتها، تُظهر أنّ العمل الصالح مرتبط بالإيمان.

العلم: يتبدّى وجه من إيمان الإنسان بالله، من خلال اهتمامه بالتعلّم، إذ تكرّرت هذه المفردة، مع ما طرأ عليها من تغيّر، عشر مرّات. وعندما يجد المؤمن أنّ معرفته تبقى محدودة، بالقياس إلى المعرفة المطلقة التي اختصّ بها الله وحده، فإنّه يعبّر عن ضرورة التعلّم: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾. وتُبيّن هذه الآية ضرورة التعلّم، عندما يوضع هذا الأخير في خدمة مصالح الناس، واستجابة لله تعالى.

الرحمة: تكرّر ورود هذه المفردة سبع مرّات في السورة، وفي هذا دليل كافٍ على الأجر الذي يناله الإنسان المؤمن بوحدانيّة خالقه، وهي من الصفات التي وصف الله تعالى نفسه بها. واتّصاف الخالق بالرحمة تعبير عن عنايته بالإنسان، وهو الذي وسعت رحمته كلّ شيء.

وتتجلّى دلالة هذا التكرار للمفردة، في دورها الفعّال في التشكيل الصوتيّ، مع ما تختزن من قيمة إيحائيّة ودلاليّة. وقد يُعيد هذا التكرار صياغة بعض الصور، "كما يستطيع أن يُكثّف الدلالة الإيحائيّة للنصّ، من جهة أخرى"[11].

وما يجدر ذكره في هذا المجال، هو تكرار فعل القول ومشتقّاته أربع عشرة مرّة، وهو دليل كافٍ على توجيه الإنسان الوجهة التي ترضي الخالق، وتحقّق أمن الإنسان وطمأنينة قلبه.

ج. تكرار الجملة

يجد الدارس تكرارًا لجمل معيّنة في سورة الكهف، كما وجد تكرارًا لأحرف معيّنة، أو كلمات مفردة. ولم يرد هذا التكرار بشكل عفوي، إنّما جاء مقصودًا يحمل دلالات محدّدة. ومن نماذج تكرار الجمل نجد:

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[12]. تكرّرت هذه الجملة مرّتين، وهي تُظهر امتحان الباري سبحانه للجماعة، ومدى طاعتهم لخالقهم، واستجابتهم لما كُلّفوا القيام به.

﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [13]. وقد أُعيدت الجملة بحرفيّتها تقريبًا، أربع مرّات. وفيها يجد الدارس ضرورة التحلّي بالصبر، وأهمّيّة هذا الأخير في تقويم سلوك الإنسان المؤمن، وفي هذا دعوة غير صريحة، للتحلّي بالصبر، مهما كانت الشدائد.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ تكرّرت هذه الجملة ثلاث مرّات [14]، في أثناء الحديث عن "ذي القرنين"، وما آتاه الله من سلطان وحكمة. وقد يكون تكرار هذه الجملة بقصد التوكيد لما حظي به هذا الإنسان الصالح من إكرام وتأييد؛ لأنّ العمل الصالح لا يضيع أثره، وتمكين ذي القرنين يحمل علامة على حاجة الإنسان الدائمة إلى خالقه، واستجابة الخالق وتمكينه من أمور معيّنة، "وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكّنوا فيه في هذه الحياة"[15].

لعلّ الملمح الأكثر بروزًا لتلاحم النصّ هو تكرار الجملة في النصّ، "فهو يدخل في نسيجه، لحمة وسدى، ويشدّ أطرافه بعضها إلى بعض"[16]. وربّما يُكسب النصّ شيئًا من الحركة، ويدور الكلام على نفسه، من غير أن يؤدّي إلى إعادة المعنى.

مهما يكن من أمر، فإنّ المعجم اللغويّ في سورة الكهف، قد كشف عن جوانب من الإعجاز المدهش الذي تميّزت به السور القرآنيّة، وهذا ما لا يتوافر في أيّ نصّ آخر.

3. الترادف ودلالاته في سورة الكهف

لقواعد التعيين سلطة في النظام اللغويّ، لكن قد يحدث أن يتمّ تجاوز هذه السلطة، في الترادف. ويجد الدارس نماذج من الترادف في السورة، منها قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[17]. يتبدّى الفارق بين الفعلين (تخرج) و(يقولون)، وإذا ما وُضع الفعلان في حال الترادف، فإنّ الفعل الثاني يتجاوز معنى الخروج؛ ليبلغ حدّ المبالغة في الكلمة الكبيرة، في إطار من التوكيد الذي يشكّل وجهًا من أوجه الإعجاز في السورة. ويقول أيضًا: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾. يُلحظ الاختلاف ما بين الفعلين (يتلطّف) و(يُشعرنّ)، مع أنّهما وُضعا في حال الترادف. وإذا كان القصد هو صرف الانتباه عن شاري الطعام، فإنّ الإشعار يتجاوز التلطّف، ليبلغ حدّ التخفّي، وهو الشاري الذي يتعامل مع الناس علنًا.

وفي آية أخرى نقرأ: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾. يتضمّن الفعل الأوّل معنى التحوّل، أي لا يتحوّل اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي تجذب أصحاب الزينة، في حين أنّ الفعل (تُطعْ) يتضمن معنى الرفض والتمرّد، فالفعلان تضمّنا الاختلاف، وهما في حال ظاهرة من الترادف. هذا وجه جديد من أوجه الإعجاز الذي تحقّق فيه الحيَد.

4. التضادّ ودلالاته في سورة الكهف

يؤدّي التضادّ دورًا كبير الأهمّيّة في سورة الكهف، إذ يسهم في الخروج على الدلالة الوضعيّة، واستبدالها، فقد "يشيع في مفاصل النصّ حركة صراع دائبة بين عناصر متضادّة، ولا يقتصر ذلك على

المفردات ذات الدلالة اللغويّة الصريحة وحسب، بل يتجاوز ذلك إلى ما يمكن أن يوصف بالموقف أو الحال" [18]. ونجد التضادّ بداية السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية. أُتبعَ معمول الفعل (عوجا) بالنعت (قيّما)، وإذا ما وُضعت المفردات في ثنائيّة ضدّيّة، فإنّ التركيب المدهش وضعهما في حال الترادف، من خلال الإعراب. لقد حلّ النظام السيمائي محل النظام الوضعيّ، وهذا شكل من أشكال الإعجاز الذي اتّصفت به السورة.

ويقول تعالى أيضًا: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾. يتجلّى التضادّ في مفردتَي (أيقاظًا، رقود)، لكنّ الحقيقة أنّهما وُضعتا في حال من الترادف، إذ أنّ الرائي يختلط عليه الأمر بين يقظة أهل الكهف ورقودهم، وسياق النصّ يُظهر نوم الفتية، بمشيئة الله، وهم أحياء، تحرّروا من سلطة الزمن، وهذا إعجاز آخر، يكشف عن بلاغة التراكيب القرآنيّة. مهما يكن من أمر، فإنّ النظام اللغويّ في سورة الكهف شكّل عمقًا من أعماق التراكيب القرآنيّة التي تميّزت بالعمق والبلاغة.

المحور الثاني: المستويان الصرفي والنحويّ في سورة الكهف

عبر صوغ التراكيب اللغويّة يجري إنتاج الدلالة وكيفيّتها، ومن المؤكّد أنّ اللغة تمتلك غير مستوى، من أجل العثور على الدلالة وإنتاجها؛ "لأنّ الأساس يكمن في النصّ، وبالذات في تشكيله"[19].

وعندما يتضمّن النص مجموعة من العناصر المترابطة، ولا قيمة لأيّ عنصر فيها، إذا كان معزولًا عن غيره. يعني هذا، ضرورة التوقّف أمام المستويات المتعدّدة التي يتشكّل منها النصّ. وحين تكون "اللغة سلسلة من الدالاّت التي لا تشير إلى مدلولات مستقلّة في وجودها، فإنّ النصوص لا تصوّر عالمًا حقيقيًّا قائمًا بصورة مستقلّة عن اللغة"[20].

إنّ دراسة اللغة التي تتمظهر فيها القدرة الإلهيّة المبدعة، تتطلّب دراسة المستويين الصرفيّ والنحويّ، كونهما يكشفان عن التراكيب المدهشة التي اتّصف بها الأسلوب القرآنيّ في التعبير.

1. المستوى الصرفيّ في سورة الكهف

لعلّ الدور الرئيس لآليّات الصرف، والأدوات والوسائل الصرفيّة، يتمثّل في توسيع الامكانات اللغويّة، بشكل يتناسب مع طبيعة المفردات ونظامها، وذلك بالاعتماد على الصياغات الجديدة التي تساعد على اختزال التراكيب النحويّة، فالصرف إذًا، يوسّع من استعمالات الكلمة، ويسهم في التأويل الدلاليّ.

ومن المفيد العناية بالمفردة التي تسهم مع أخواتها في تأليف الجملة، وإعطائها معنى ما؛ لأنّ "البحث عنها، وهي مفردة، لتكون على وزن خاصّ وهيئة خاصّة هو موضوع علم الصرف"[21].

أ. الأفعال ودورها في سورة الكهف

يعثر الدارس على مجموعة كبيرة من الأفعال، بأزمنتها المتعدّدة، في سورة الكهف. بعضها ورد لازمًا، وبعضها الآخر

متعدّيًا استوفى معموله. في صيغة المجهول نجد تسعة أفعال، إذ لا حاجة لذكر القائم بالفعل. أمّا في صيغة المستقبل، فنجد خمسة أفعال، وهي كافية للدلالة على ما سيحدث في القادم من الأيّام. والعدد الأكبر من الأفعال، نجده في صيغة الماضي، إذ ورد ما يقارب مئة وستّة وخمسين فعلًا، وهي تكشف عن حال المؤمن الذي أحسن عملًا، كذلك الكافر أو المكذّب الذي لا يجد أمامه سوى الندم والخسران. تتضمّن السورة مئة وثلاثين فعلًا في المضارع، وهي، أيضًا، تُظهر عاقبة الكفر والضلال، في حين أنّ المؤمن الصادق يُكافأ بالجنّة التي وُعد بها.

ويتبدّى دور الأفعال المزيدة في تغيير الدلالة، كالفعل (اتّخذ) الذي تكرّر غير مرّة، إذ يظهر دور الوزن (افتعلَ) في الكشف عن حال المشركين الذين أنكروا وحدانيّة الخالق، وكان نصيبهم الخزي والخسران.

تحتوي السورة ثمانية عشر فعلًا في حال الأمر، وإذا ما كانت صيغة الأمر تطلب القيام بعمل جيّد ومفيد، فإنّ هذا العدد يشير إلى ضرورة تصديق الرسول، وورود الفعل (قلْ) مرّات متعدّدة، فإنّ الغاية هي تعليم الرسول (ص)، وتوضيح ما غمُض عليه، كذلك تحذير المشركين، وتبشير المؤمنين بما وعدهم الله به.

ونلحظ ورود واحد وعشرين فعلًا ناقصًا، يتمحور القسم الغالب منها حول المقولة المحوريّة: ما أرسل الله المرسلين إلاّ لغايتين اثنتين، أي التبشير والانذار، ومَن يعرض فهو ظالم لنفسه، والله هو ذو الرحمة والمغفرة.

ب. الضمائر ودورها في سورة الكهف

توزّعت الضمائر على المتكلّم والمخاطب والغائب، وأسهمت جميعها في الكشف عن الدلالة. وورود ما يقارب اثنين وثمانين ضميرًا من ضمائر المتكلّم الذي هو الله سبحانه، اتّصلت به (نا) الجمع دلالة على التعظيم، يؤكّد حرصه على نشر الإيمان بوحدانيّته، لما فيه مصلحة الإنسان. ويمكن تبيان علاقة المخاطب بالمتكلّم، للغاية ذاتها، وإذا ما كان النبيّ محمد (ص) هو المخاطب، فإنّ ورود خمسة وستّين ضميرًا، يُظهر أهمّيّة الدور الذي ينهض به الرسول الكريم، وضرورة الاستجابة لله تعالى.

والقسم الأغلب من الضمائر عائد إلى الغائب، إذ يقارب عددها مئة وعشرين ضميرًا، وهي منقسمة إلى مستجيب للدعوة، ومتنكّر لها. وتظهر أهمّيّة الإيمان بالله، وعاقبة التكذيب الشرك.

وانقسمت الضمائر العائدة إلى الجماعة، وعددها يقارب خمسين ضميرًا، ما بين الدلالة على الإيمان، أو عدمه، وفي هذا التوزّع كشف عن مطامع النفس البشريّة، عندما تُبطل عمل العقل، والسعي إلى حبّ التملّك والاستئثار. ويمكن القول إنّ الضمائر أسهمت في إظهار جانب من جوانب الإعجاز القرآنيّ في السورة.

ج. أسماء الفاعلين ودورها الدلاليّ

أسهمت أسماء الفاعلين في تقديم الدلالة في السورة، ويعثر الدارس على ستّة عشر

اسمًا، توزّعتها الأقسام الرئيسة فيها، منها: (ماكثين، جاعلون، باخع، باسط، فاعل، بارزة، مُبشّر، مُنذر).. وغيرها. وقد بات من المعروف أنّ اسم الفاعل هو "صفة تؤخذ من الفعل المعلوم؛ لتدلّ على معنى وقع من الموصوف بها، أو قام به على وجه الحدوث لا الثبوت"[22]. والقول بالحدوث هو كون المعنى القائم بالموصوف متجددًا بتجدّد الأزمة. يكون اسم الفاعل غير مرتبط بالزمان، ولتجرّده من الزمان دلالة محدّدة، فمكوث المؤمنين في الجنّة أبديّ، وتغيير طبيعة الأرض ونظامها، هو كذلك توضيح لقدرة الله تعالى، وهذا ما يتضمّنه معنى اسم الفاعل (منذر). أمّا اسم الفاعل (باسط)، في جملة (باسط ذراعيه بالوصيد)، فيشير إلى حال السكونيّة التي سيطرت على الكلب، من غير أن يكون لهذا أيّة علاقة بالزمن. وعلى هذا، فاستخدام اسم الفاعل حقّق الغرض الذي قُدّم من أجله، كما قدّم أنموذجًا جديدًا من نماذج الإعجاز القرآنيّ في السورة.

د. الظروف ودلالاتها في السورة

تحظى دراسة الظروف بأهمّيّة معيّنة، كونها الحيّز الذي يحتوي الحدث، ولا يستقيم المعنى من دونها. وتتعدّد الظروف المستخدمة في السورة وتتنوّع، ومن أكثرها تعدّدًا، (من دونه)، كقوله تعالى: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾. تضمّن معنى الجارّ والمجرور معنى الاستثناء، وهذا يُظهر رسوخ كلمات الله، وبقائها كما نزلت. ويتحدّث عن الجدار الآيل إلى السقوط بقوله: "وكان تحتهُ كنزٌ". ومن الواضح أنّ الحيّز المكانيّ هو الذي يحتوي الحدث، وهنا تتّضح مشروعيّة الترميم التي نهض العبد الصالح بها. ويُستخدم الظرف في تحديد المكان، كقوله تعالى عن مكان غروب الشمس: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾. وفي هذا القول دلالة على أهمّيّة الظرف في إغناء الدلالة وتوضيحها.

2. المستوى النحويّ في سورة الكهف

الظواهر النحويّة في أيّ نصّ تشكّل عاملًا كبير الأهمّيّة، في تشكيل المعجم اللغويّ له، إلى جانب المستويين المعجميّ والصرفيّ. والتراكيب النحويّة، والطريقة التي تصاغ بها، تشكّل جانبًا من جوانب التمرّد على القوانين اللغويّة المفروضة، إذ لا تتّسع هذه الأخيرة؛ ليعبّر الشاعر عمّا يريد، على هذا، يتمّ تجاوز العلاقة القائمة بين المفردة والسياق، في حين أنّ العلاقات الرابطة بين الوحدات المتجاورة، يمكن لها أن تمثّل الشكل المنطقيّ المناسب.

لعلّ من أبرز ما تقوم به الظواهر النحويّة هو تخلخل النظام اللغويّ السائد، وهناك غير شكل من أشكال التصرّف في بينية النظام:

أ. الحذف والإثبات ودورهما في تحديد الدلالة

من أكثر تلك الظواهر أهمّيّة هو الحذف، وقد يكون هناك غير غاية لاستخدامه، "إذ إنّ الشيء إذا أُضمر ثمّ فُسّر، كان ذلك أفخم له، من غير أن يُذكر من غير تقدّم إضمار"[23]. ومن نماذجه في سورة الكهف، قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

إنّ الجملة الإسميّة التي دخل عليها الحرف المشبّه بالفعل تتكوّن من المبتدأ والخبر، وتوكيد هذه الجملة بـ(أنّ) أسهم في الاستغناء عن الخبر، لوجود ما يدلّ عليه، وهو لا النافية للجنس، واسمها وخبرها. ووجود هذا الحذف لم يغيّر من المعنى، إنّما شكّل عاملًا في تقوية المعنى، وتضمّن دلالة على وجوب التصديق بما جاء به الرسول، وعلى أنّ الإنسان سوف يُحاسب على ما قدّمت يداه في الحياة الدنيا. ونقرأ قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾.

يُوجّه الخطاب إلى الكافر هنا، وقد ورد بصيغة الاستفهام الإنكاريّ، ولهذا الاستفهام دلالة معيّنة، إذ يتضمّن معنى ضرورة الإيمان بالله. ويُلحظ هنا، أنّ المحذوف هو الفعل خلق، قبل (من نطفة). ومع ما في هذا الحذف من تجنّبٍ للتكرار، فإنّ فيه ملمحًا جماليًّا، لا يخفي على المتلقّي. وخلق الإنسان من تراب يدلّ على ضعة المنشأ، كما يوحي بضرورة التواضع الذي يُعدّ من الصفات الحميدة.

وقد يحدث أن يُحذف معمول الفعل المتعدّي، كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾. ما يتبادر إلى الذهن أنّ الفعل (عملوا) يحتاج إلى مفعول؛ لإتمام المعنى، إلاّ أنّ التركيب اكتفى بفاعله، إذ لا ضرورة لذكره، ويُقلّل من جماليّته، في أنّ مفردة (حاضرًا) التي هي حال من الفعل الأوّل (وجدوا)، وهذا الربط بين الجملتين الفعليّتين، وتداخلهما، هو وجه من أوجه الإعجاز القرآنيّ في السورة.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾. حُذف مفعول الفعل (ظلموا)، وهو فعل متعدٍ، كما ورد في الآية السابقة، وقد يكون ذلك للغايات نفسها، يُضاف إليها ما تنطوي عليه الآية من تحذير وترهيب، وتشجّع المتلقّي على الإيمان بالله، وتبيان مدى قدرته. والحذف "صورة بناء نحويّة، تؤثّر في عبارات الكلام، وتُكسب المقاصد معاني إضافيّة، وتعمل على التوظيف الشعريّ للّغة، أي تحسينها"[24].

وإذا ما كان للحذف مثل هذه الأهمّيّة، فإنّ للإثبات جماليّته أيضًا، كقوله تعالى عن الجنّتين: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾. ومفعول الفعل (جعل)، المتمثّل في (زرعًا)، يُضفي على التعبير جماليّة، كما يُبيّن ما الذي جُعل بين الجنّتين. وكذلك في الآية: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾. ومع التحذير والترهيب، يُلحظ أنّ ذكر مفعول الفعل (أعتدَ)، أسهم في الكشف عن عاقبة الكفر، وضرورة تصديق الرسول، والتخلّص من العذاب في الآخرة. ويجد الدارس نماذج متعدّدة، لهذا الذكر والجماليّة الذي ينطوي عليه.

ب. التقديم والتأخير ودورهما في تحديد الدلالة

التقديم والتأخير أمر معروف عند العرب في الشعر والنثر على حدّ سواء. "إذ هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية (...) فتجد أن راقك ولطُف عندك أن قُدّم فيه شيء وحُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان"[25]. وجاء القرآن؛

ليعزّز هذه الطريقة في التعبير عن المعنى. تتضمّن سورة الكهف حالات متعدّدة من هذا التصرّف في تركيب الجملة، نجد من نماذجه، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾. الأصل في الجملة هو تقديم الخبر على الجارّ والمجرور، لكنّ هذا التأخير الذي أصابه، أظهرَ مكانة الشيطان بالنسبة إلى الإنسان المؤمن، فمحور الكلام هو الجماعة الدالّ عليها الجارّ والمجرور، على أن تأتي العداوة بعد ذلك. هذا، إلى جانب فخامة التعبير وبلاغته، "والتقديم والتأخير يوجّهان المعنى اتّجاه الاهتمام المطلوب، ويعطيان، تاليًا، قيمة تعبيريّة خاصّة لهذه العناصر المختلفة"[26].

وفي آية أخرى نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾. تنطوي الآية على تحذير شديد، لأولئك الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم. والبدء بـ (نا) الدالّة على التعظيم، كذلك ضمير الفاعليّة الذي أعقب التوكيد، يؤكّدان ضرورة تجنّب الخطأ. وتأخير معمول الفعل (نزلا)، وتقديم الجارّ والمجرور، يُظهر العقاب الذي ينتظر هذه الفئة من الناس. لقد أسهم التقديم والتأخير في بثّ الرعب في قلوب المشركين، إذا ما استمرّوا في كفرهم.

ويتحدّث القرآن عن الشمس التي شاهدها (ذو القرنين)، فيقول تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾. تضع الآية الإنسان أمام مشهد الشمس التي تطلع على القوم، من غير ساتر، وهو مكان غير محدّد. ويتمحور التقديم والتأخير في وضع معمول الفعل (نجعل) في آخر الجملة، بعد أن تقدّم عليه الجارّ والمجرور (لهم، ثمّ من دونها)، وهذا يعني أنّ الأهمّيّة ليست للمفعول به، بل هي لما تقدّم عليه. وفي هذا، إلى جانب التنسيق الصوتيّ الناتج عن نوعيّة الأحرف المنطوق بها، نلحظ تركيبًا غنيًّا بالبلاغة والجماليّة، في آن معًا.

ج. النفي والاستثناء ودلالتهما في السورة

النفي والاستثناء من الحالات البلاغيّة التي حفل بها القرآن الكريم، وهو يدخل الجملتين الإسميّة والفعليّة، وتتعدّد حالات النفي في السورة وتتنوّع، فيجد الدارس نفيًا بالفعل المضارع المجزوم، وهذا النوع يتضمّن معنى النفي والجزم والقلب، كقوله تبارك اسمه عن القرآن: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾. وهذا يعني استقامة الكتاب واستقامة منهجه. ونجد النفي بحرف النفي، إذ يقول عن المشركين: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾. و(إن) هنا، يمكن استبدالها بـ(لا النافية)، من غير أن يتغيّر المعنى، إلاّ أنّ النفي بـ(إن) يزيد في توكيد النفي، ويُقوّي المعنى.

ويرد النفي بالمضارع المنصوب، ونجد غير نوع من هذا النفي، ومن نماذجه: ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾. وقول الفتية هنا، يعبّر عن الإيمان بوحدانيّة الخالق، ورفض الشرك رفضًا قاطعًا. وإذا ما تضمّن نفيًا نهائيًّا في الحاضر، فإنّه يمتدّ إلى المستقبل من الزمن. كذلك نجد النفي مع المضارع المرفوع، كما في الآية: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾. وهذا النفي كسابقه، إذ ينفي

الشرك بشكل كامل. ومن نماذج النفي والاستثناء قول الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾. وهذ يدلّ على طبيعة الدور الذي ينهض به المرسَلون، وهو دور شاقّ لا ينهض به إلاّ قلّة من المرسلين. ونقرأ قوله تعالى: ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاء ظَاهِرًا﴾. وورود النفي والاستثناء في إطار من النهي، فهو يؤكّد النفي القاطع للمراء، على أساس من التوحيد الذي لا بديل منه.

- **المحور الثالث: المجاز والرمز في سورة الكهف**

التصوير الفنيّ مرتبط بالمجاز، وهذا الأخير، معجميًّا، مصدر ميميّ من "جوز جزْتُ الطريق وجاز الموضع جوز أو جؤز أو جوازًا أو مجازًا أو جاز به وجاوزه"[27]. والدلالة الاصطلاحيّة تغاير الدلالة المعجميّة. والمجاز هو القانون الذي يمنح اللغة الحيويّة في توليد الدلالات، عبر تماسّها بالعالم.

والصورة الفنيّة هي دائمًا غير واقعيّة؛ لأنّها تركيبة وجدانيّة، والمجاز الذي يؤدّي إلى بنية من الاختلافات، في نظام اللغة، فإنّه يتمّ وفاق آليّتين: المماثلة والمجاورة؛ الأولى تتمثّل في التشبيه والاستعارة، والثانية تتمثّل في المجاز المرسَل والكناية. وتبقى الغاية هي الغوص إلى أعماق جديدة، وإنجاز بنية متطوّرة، يؤدّي هذا المجاز دورًا كبير الأهمّيّة في إيجادها.

1. الصور التشبيهيّة ودلالاتها

يتمحور تعريف التشبيه عند البلاغيّين، حول فكرة المقارنة بين طرفين، وعلاقة طرف بآخر. هذه العلاقة، "قد تستند إلى مشابهة حسّيّة، وقد تستند إلى مشابهة في الحكم أو المقتضى الذهنيّ الذي يربط بين الطرفين المقارنين، من دون أن يكون من الضروريّ أن يشترك الطرفان في الهيئة المادّيّة، أو في كثير من الصفات المحسوسة"[28].

ويمكن أن نعدّ التشبيه محاولة تمكّننا من قراءة بعض جوانب الوجود، "عن طريق مقارنتها بأشياء أخرى تُفصح عن بعض مكنونها"[29]، هو عمليّة تعبيريّة ترتكز على اللّغة، يتمّ فيها تجريد طرفي التشبيه من هويّتهما الواقعيّة؛ لإنشاء هويّة جديدة، هي الحاصل الدلالي المتسرّب إلى الذهن بوساطة هذه العمليّة. والتشبيه في حقيقته، تلوين لشكل من أشكال الإسناد في اللّغة، وهو ضرورة لغويّة لا يمكن الاستغناء عنها.

تحفل سورة الكهف بصورتين قائمتين على التشبيه، نقرأ قوله سبحانه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾. يقع التشبيه في (بماءٍ كالمُهْلِ)، وهناك مَن يقول إنّ (المهل) هو دردري الزيت المغلي، أو هو الصديد الساخن[30]. والأوّل هو الأرجح؛ لأنّ الحديث عن الشراب (بئس الشراب مرتفقًا)، يؤكّد هذا الاحتمال. والمشبّه به، زيتًا أو صديدًا، على النقيض من الماء الذي يروي من ظمأ وفي كلتا الحالين، تتبدّى الغاية من التشبيه ببثّ الرعب في قلوب المشركين، وتبيان عاقبة شركهم.

ونقرأ في آية أخرى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء﴾.

واضح هنا، أنّ المشبّه هو الحياة الدنيا، والمشبّه به هو الماء المنزل من السماء، إلى جانب ما يحلّ بجمال الحياة المؤقّت. ومع ما في بين الطرفين من تباعد، إلاّ أنّ الغاية من التشبيه تتمثّل في إنذار الناس، والطلب بعدم الانجرار وراء زخارف الحياة وبهجتها وزينتها.

مهما يكن من أمر، فإنّ التشبيهين الموجودين في السورة، كافيين للدلالة على رشاقة الصورة الفنّيّة، وتأدية الدور المطلوب منها، ومضمونها الإيمانيّ الذي تعدّدت الإشارات إليه في السورة.

2. الصور الاستعاريّة ودلالاتها

تنهض الاستعارة على عامل التماثل، شأنها في ذلك شأن التشبيه، والدراسات المستفيضة كشفت عن الدور الكبير الذي تنهض به في الامتاع وتحقيق الجماليّة في آنٍ معًا. "ومن الفضيلة الجامعة فيها: أنّها تُبرز هذا البيان أبدًا في صورة مستجدّة تزيد قدره نبلًا، وتوجب له بعد الفضل فضلًا، وإنّك لتجد اللّفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، حتّى تراها مكرّرة في مواضع، ولها في كلّ واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد وفضيلة مرموقة"[31].

والاستعارة تعمل على تحرير الدوالّ من النظام الدلاليّ المألوف في اللّغة؛ لأنّ الاستعارة في الأصل "هي نقل دلالة اللّفظ من المعنى الذي وُضع له إلى معنى استعاريّ آخر"[32]. والعامل تماثليّ، يُحدث نوعًا من التقاطع بين الكيانات المتغايرة؛ لوجود مقوّم دلاليّ مشترك، ويمكن القول: إنّ الاستعارة "هي، بوجودها المجرّد، عمليّة إدراك واكتشاف لعلاقات التشابه والتضادّ بين أشياء الوجود: فهي تكتشف لا التطابق، بل التشابه – عبر – التمايز"[33].

يستحضر التشبيه ما هو فنّيّ إلى جانب ما هو مرجعيّ، في حين أنّ الاستعارة تندرج في مستوى آخر، "ينتفي فيه حضور المرجعيّ لصالح الفنّيّ وحده"[34]. وعندما تكون رؤية الله تعالى هي الرؤية المهيمنة في سورة الكهف، فإنّ من أهدافها "إلحاق رؤية المتلقّي من عالمه السببيّ إلى عالمه الفنّيّ"[35]، وهذا ما تؤدّيه الاستعارة بنجاح كبير، من خلال جعل المتلقّي شريكًا في عمليّة التمثّل والاستيعاب. ويمكن العثور على غير استعارة في السورة، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾.

تتبدّى الاستعارة في التعبير (بعضهم يموج في بعض)، لقد استعيرت حركة الموج من البحر، وأُبقي على جملة (يموج) التي هي من صفات ماء البحر. وهي تكشف عن اختلاط البشر واضطرابهم، في يوم الحشر، "تتدافع جموعهم تدافع الموج، وتختلط اختلاط الموج"[36]. ولعلّ الغاية من هذه الاستعارة تتمثّل في المشهد الرهيب يوم القيامة، وحضّ الناس على الإيمان بالله، وتبيان عاقبة الشرك. ويقول تعالى عن العبد الصالح الذي كان برفقة (موسى): ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾.

الاستعارة قائمة على التجسيم، ففعل الإرادة ليس من صفات الأشياء الجامدة، إنّما هو من صفات الإنسان. كان من الممكن التعبير عن الفكرة بالقول (إنّ الجدار آيل إلى السقوط)، إلاّ أنّ استخدام

الصورة الفنيّة زاد في قوّة التعبير، وأكسبه جماليّة عذبة، إلى جانب ما يتضمّن من مبالغة، "وباتت الصورة حدسًا يُعيد ترتيب المدركات، في سياق من العلاقات الحيّة التي لا تضاهي الواقع، بقدر ما تؤلّف بين عناصره" (37). يمكن القول إنّ الصور الاستعاريّة في سورة الكهف قد أضافت جديدًا على أوجه الاعجاز في القرآن الكريم، إلى جانب ما بعثت من جماليّة في التعبير، وأصالته اللغويّة.

3. الصور الكنائيّة ودلالاتها

الكناية من الأركان المهمّة في المجاز، وهي تقوم على مبدأ المجاورة، والكناية مشتقّة من الستر، كما ورد في تعريفات القدماء، "يقال: كنّيت عن الشيء إذا سترته، وأُجري هذا الحكم في الألفاظ التي يُستر فيها المجاز بالحقيقة (...)، فحدّ الكناية الجامع لها، هو أنّها كلّ لفظة دلّت على معنى، يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز" (38). وتكون العلاقة بين الألفاظ في الكناية علاقة معياريّة، مع الحفاظ على الملاءمة في ما بين تلك الألفاظ، مع العلم أنّ "الأخذ بالدلالات الحقيقيّة والاصطلاحيّة لا يفي بدوره بالغاية، فتبقى هذه الدلالات مقصّرة عن إعطاء التعبير حقّه"(39).

وهناك علاقة ما بين الكناية والمجاز المرسل، أمّا الفرق بينهما فيتمثّل في عدم انحراف الأولى عن معياريّة التركيب، في حين أنّه – أي الانحراف – أمر أساسيّ في المجاز المرسل. "فالفرق بينها [الكناية] وبين المجاز، من هذا الوجه، أي من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمة، فإنّ المجاز ينافي ذلك"(40). وقد أدرك النقاد والأدباء العرب، الدور الحيويّ الكبير الذي تؤدّيه الصور القائمة على الكناية، مع ما تضفيه من جماليّة على القصيدة، فاستُخدمت على نطاق واسع في القصائد الشعريّة القديمة والحديثة على السواء. وفي القرآن الكريم، يجد الباحث أنّ الصور الكنائيّة مبثوثة هنا وهناك في سور القرآن وآياته، وقد وردت لتؤدّي وظائف محدّدة قُصد إليها.

أ. أقسام الكناية

وللكناية مدلولان: مدلول أوّل، ومدلول ثانٍ؛ المدلول الأوّل ليس بذي أهمّيّة، وعلى هذا، قُسمت الكناية من حيث المدلول الثاني المكنّى عنه قسمين(41) رئيسين، هما:

1. الكناية عن الصفة: تتحقّق هذه الكناية، "عندما يكون المكنّى عنه، أو المدلول الثاني حالًا تتعلّق بالموصوف"(42)، أي من صفات الشخص الذي هو موضوع الكلام. أي يكون التركيز على الصفة التي يتّصف بها الاسم.

2 . الكناية عن الموصوف: هذا النوع من الكنايات يتحقّق، "عندما يكون المكنّى اسمًا موصوفًا"(43)، أي ليس حالًا كما في القسم السابق. ويمكن العثور على غير صورة كنائيّة في سورة الكهف، ومنها على سبيل المثال: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾.

المقصود بالتعبير هو رسم صورة للرجل الذي اشتدّ به الحزن والألم، لماله الضائع، وجهده الذاهب، لكنّ المعنى لم يرد بطريقة مباشرة، بل ورد في صورة كنائيّة. وتقليب

الكفّين، لجهة المجاورة، يشير إلى حال الرجل، بعد اندثار الثمر والجهد المبذول. على هذا، يمكن القول إنّ للكناية قوى مشهديّة، "تشكّل نواة دلاليّة، وإشاريّة، تشير إلى الواقع، وأيضًا إلى لعبة المجاز "(44).

كذلك قوله تعالى عن منظر أهل الكهف: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

يتمحور المعنى حول منظر أهل الكهف المخيف، بعد انقضاء مئات السنين على نومهم. والآية الكريمة لم تُشر إلى هذا بشكل صريح مباشر، بل استخدمت صورة كنائيّة، تتّجه نحو الخارج، أي نحو الحواسّ، إذ إنّ ما يراه المشاهد يقع خارج توقّعاته. ونستطيع القول إنّ استخدام الصور الكنائيّة في سورة الكهف، كشف عن وجه جديد، من أوجه الإعجاز القرآنيّ.

4. صور المجاز المرسَل ودلالاتها

المجاز المرسَل هو انحراف في التعبير، وانتقال الدلالة، وهو ينحرف عن معياريّة التركيب، وهذا يؤدّي مسحة جماليّة، لا تخفى على أحد. هناك مَن يعدّه حالًا خاصّة من الكناية؛ لأنّ كلاً منهما يتضمّن علاقة شيء بشيء آخر. ولا تخلو سورة الكهف من نماذج من استخدام المجاز المرسَل، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾.

لعلّ إعراض الكافرين عن ذكر ربّهم، جعلهم غير قادرين على الرؤية، لقد حُجب عن أعينهم ما كان يجب الاعتراف به. إنّ رفضهم ذكر الله تعالى دليل على شركهم وضلالهم. والصورة القائمة على المجاز المرسَل، على أساس الجزء من الكلّ، تكشف تعنّت الكافرين، وبيّنت حال هذه الشريحة من الناس؛ لأنّ الإيمان لم يدخل قلوبهم.

ممّا تقدّم، يمكن القول إنّ الصور الفنّيّة التي بُثّت هنا وهناك في سورة الكهف، أظهرت جوانب من البلاغة القرآنيّة، كما أضافت جديدًا إلى ما في السورة من إعجاز، إلى جانب التراكيب ودلالاتها.

كلمة أخيرة

تتعدّد ملامح الإعجاز في سورة الكهف وتتنوّع، وهو ليس القصص التي تضمّنتها، ولا في التركيز على الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد فحسب، وإنّما في أسلوب التعبير الذي لا يضاهيه أيّ أسلوب آخر، ممّا جادت به قرائح المبدعين من الأدباء.

توقّفنا أمام النظام اللغويّ في السورة، وتبيّن أن الحقول الدلاليّة المتعدّدة، تمحورت حول الدعوة إلى الإيمان بالله، وتحذر المشركين، وتبيان العاقبة الوخيمة للشرك، كذلك نتائج الاستجابة للرسل والنبياء.

لحظنا الدور الكبير الذي أدّاه التكرار بأنواعه، وتأثيره في الفاعليّة الصوتيّة الناجمة من التناغم بين الأحرف والمفردات، إلى جانب ما حقّقه من جماليّة ورشاقة، في إطار التركيز على ضرورة الإيمان بالله. أمّا الترادف والتضادّ، فقد أسهما في مغزى هذا الايمان، واختيار مفردات بعينها، مترادفة أو متضادّة، كذلك أسهم في توسيع مفهوم الإعجاز القرآنيّ وتعميقه.

تناولنا المستويين الصرفيّ والنحويّ في محور آخر، وتبيّن لنا الدقّة الرائعة في

اختيار المفردات، من أسماء فاعلين، أو أفعال أو ضمائر، وعلاقة هذه المفردات بالمعنى، وكيفيّة تأديته، بشكل ليس له نظير. أمّا على المستوى النحويّ فقد رأينا حالات التقديم والتأخير، والحذف والاثبات، ودورها في توسيع المعنى، وقد قُدّم هذا المعنى بطريقة مدهشة، غايتها الأساس هي الحضّ على الإيمان بالخالق، والاستجابة لما كُلّف الإنسان به.

خُصّص المحور الأخير لدراسة الصورة الفنّيّة في سورة الكهف، ولا بدّ من محاولة الكشف عن طرق التعويض التي اعتُمدت، من أجل التعبير عن أشياء العالم، والبنى اللغويّة المتعدّدة التي أوجدتها اللغة، رأينا منها التشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز المرسَل، وقدّمت صورًا فنّيّة ناجحة، هي كلّها جوانب من الإعجاز القرآنيّ. وهذه كلّها حاولت التعويض عن قصور اللغة. والهدف هو إعادة إنتاج للعالم الواقعيّ، من منظور دينيّ، يرمي إلى الارتقاء بالإنسان، وتأدية الدور المطلوب منه. والعالم المرجعيّ الذي تناولته هذه الصور، مستقطب حول ثنائيّة الإيمان/ الشرك، وفي الوقت ذاته، طُوّعت للتعبير عن قضايا الإنسان، ودوره في الحياة.

رأينا استخدامًا لهذه الأنواع من الصور الفنّيّة في سورة الكهف، وركّزت جميعها على بناء الإنسان المؤمن، وحاولنا تعرّف العالم الفنّيّ الجماليّ الذي تتاسقت ملامحه في السورة، ولا تزال بحاجة إلى مزيد في جهود أخرى، تنصبّ في هذا المجال.

***

الهوامش

* **دكتور في كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجامعة اللبنانية**

[1]Riffaterre: **Essais de stylistique structurale.** Paris, Flammarion, 1971, P202., Michael

[2] عدنان بن ذريل: **النقد والأسلوبية بين النظرية والتطبيق.** دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1989، ص 171.

[3] لانسون ومانييه: منهج البحث في اللغة والأدب. تر. محمد مندور، بيروت، دار العلم للملايين، ط.2، 1982، ص 108.

[4] محمد مفتاح: **تحليل الخطاب الشعري.** بيروت، دار التنوير، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط.1، 1985، ص58.

[5] سيد قطب: **في ظلال القرآن.** بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 7، 1971، ص 5/ 369.

[6] علي مهدي زيتون: **النص الشعري المقاوم في لبنان.** بيروت، منشورات اتحاد الكتاب اللبنانيين، ط1، 2001، ص 236.

[7] منذر عياشي: **مقالات في الأسلوبية.** دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، لا.ط. 1990، ص 82.

[8] تامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي. اللاذقية، دار الحوار، ط1، 1983، ص 16. نقلًا عن: عبد القاهر الجرجاني: **المقتصد.** (ميكروفيلم)، ورقة 2/ 324.

[9] منذر عياشي: **الأسلوبية وتحليل الخطاب.** حلب، مركز الانماء الحضاري، ط1، 2002، ص 78.

[10] تامر سلوم: **نظرية اللغة والجمال في النقد العربي.** ص 42.

[11] منذر عياشي: **الأسلوبية وتحليل الخطاب.** ص 80.

[12] القرآن الكريم. 18/7. و8/ 30.

[13] القرآن الكريم. 67/18، و18/ 72 و75، و82/18.

[14] القرآن الكريم. 18/ 85 و 18/ 89 و18/ 92.

[15] سيد قطب: **في ظلال القرآن.** 408/5.

[16] منذر عياشي: **الأسلوبية وتحليل الخطاب.** ص 84.

[17] القرآن الكريم. 18/ 5.

[18] وجدان الصائغ: **الصور الاستعارية في الشعر العربي الحديث.** بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2003، ص 157.

[19] عدنان بن ذريل: **اللغة والبلاغة.** دمشق، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، لاط ، 1983، ص 20.

[20] Vincent Leitch :**Deconstructive Criticism.** P 208.

[21] مصطفى الغلاييني: **جامع الدروس العربية.** بيروت، المكتبة العصرية، ط 33، 1977، ص 8.

[22] الغلاييني: جامع الدروس العربية. 1/ 178.

[23] عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز.** ص 95.

[24] عدنان بن ذريل: **اللغة والبلاغة.** ص 104.

[25] عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز.** تح. رضوان الداية وفايز الداية، دمشق، دار قتيبة، ط1، 1982 ص 79.

[26] عدنان بن ذريل: **اللغة والبلاغة.** ص 106.

[27] ابن منظور: **لسان العرب.** تنسيق علي شيري، بيروت، دار صادر، ط2، 1992، 3\238.

[28] جابر عصفور: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب.** ص 172.

[29] علي مهدي زيتون: **أدبية الخطابة الاسلامية.** بيروت، دار الفارابي، ط1، 2012، ص 76.

[30] يُنظر: سيد قطب: **في ظلال القرآن.** 5/ 385.

[31] عبد القاهر الجرجاني: **أسرار البلاغة.** تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة، لا.ط، 1982، ص 33.

[32] عدنان بن ذريل: **اللغة والبلاغة.** ص 55.

[33] كمال أبو ديب: **جدلية الخفاء والتجلي.** بيروت، دار العلم للملايين، ط 2، 1981، ص 255.

[34] زيتون: **أدبية الخطابة الاسلامية.** ص 141.

[35] م. ن.، ص 142.

[36] سيد قطب. **في ظلال القرآن.** 414/5

[37] عاطف جودت نصر: **النص الشعري ومشكلات التفسير.** ص 192.

[38] ابن الأثير: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.** القاهرة، 1960، ص 52-53.

[39] صبحي البستاني: **الصورة الشعرية.** ص 162.

[40] القزويني: **الايضاح في علوم البلاغة** . بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980، ص 456.

[41] يرى عبد القاهر الجرجاني في "دلائل الاعجاز" أنّ بالامكان الوقوف على قسم ثالث، هو الكناية عن النسبة، وللتوسع في ذلك تراجع الصفحات 237- 239 من هذا الكتاب المذكور. وهذا القسم هو الوحيد الذي يظهر فيه الانحراف في التركيب.

[42] صبحي البستاني: **الصورة الشعرية.** ص 164.

[43] صبحي البستاني: **الصورة الشعرية.** ص 164.

[44] عدنان بن ذريل: **اللغة والبلاغة.** ص 179.

***

مكتبة البحث

- **المصادر**

- **القرآن الكريم**
- ابن الأثير: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.** القاهرة، 1960، ص 52-53.
- ابن منظور: **لسان العرب.** تنسيق علي شيري، بيروت، دار صادر، ط 2، 1992، 3\238.
- القزويني: **الايضاح في علوم البلاغة** . بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980 .

- **مراجع الدراسة**

- تامر سلوم: **نظرية اللغة والجمال في النقد العربي.** اللاذقية، دار الحوار، ط1، 1983، ص 16. نقلًا عن: عبد القاهر الجرجاني: **المقتصد.** (ميكروفيلم)، ورقة 2\ 324.
- جابر عصفور: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب.**بيروت،المركز الثقافي العربي، ط 3، 1992.
- سيد قطب: **في ظلال القرآن.** بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 7، 1971، ص 5\369.
- صبحي البستاني: **الصورة الشعرية.**بيروت، دار الفكر اللبناني، ط 1، 1986.
- عاطف جودت نصر: **النص الشعري ومشكلات التفسير.**بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، القاهرة الشركة المصريّة العالميّة للنّشر لونجان، ط 1، 1996.
- عبد القاهر الجرجاني: **أسرار البلاغة.** تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة، لا.ط، 1982.
- عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز.** تح. رضوان الداية وفايز الداية، دمشق، دار قتيبة، ط1، 1982.
- عدنان بن ذريل: **اللغة والبلاغة.** دمشق، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، لا.ط ، 1983.
- عدنان بن ذريل: **النقد والأسلوبية بين النظرية والتطبيق.** دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1989.
- علي مهدي زيتون: **النص الشعري المقاوم في لبنان.** بيروت، منشورات اتحاد الكتاب اللبنانيين، ط 1، 2001.
- لانسون ومانييه: **منهج البحث في اللغة والأدب.** تر. محمد مندور، بيروت، دار العلم للملايين، ط 2، 1982.
- محمد مفتاح: **تحليل الخطاب الشعري.** بيروت، دار التنوير، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1985.
- مصطفى الغلاييني: **جامع الدروس العربية.** بيروت، المكتبة العصرية، ط 33، 1977.
- منذر عياشي: **الأسلوبية وتحليل الخطاب.** حلب، مركز الانماء الحضاري، ط1، 2002.
- منذر عياشي: **مقالات في الأسلوبية.** دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، لا.ط. 1990.
- وجدان الصائغ: الصور **الاستعارية في الشعر العربي الحديث.** بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2003.

- **المراجع الأجنبية**

- Michael Riffaterre: **Essais de stylistique structurale.** Paris, Flammarion, 1971, P202.
- Vincent Leitch :Deconstructive Criticism. P 208

***